

المحاضرة الرابعة: دراسة الحالة

- دراسة الحالة (case study):

تعتبر دراسة الحالة أحد الدراسات الوصفية، وتستخدم لاختبار الفروض وهي عبارة عن بحث معمق في حالة من الحالات، وبحث في العوامل المعقدة فيها، والظروف الخاصة التي أحاطت بها، والنتائج العامة والخاصة الناتجة عن ذلك كله. ويرجع استخدام دراسة الحالة في القرن الماضي في نظر البعض إلى ظهور نظرية الجشطالت (gestalt) التي لفتت الانتباه إلى ضرورة الاهتمام بالموقف الكلي الذي يتفاعل فيه الكائن الحي واعتباره جزءاً من الموقف لا ينفصل عنه إلا بقصد التحليل. وقد سبق إلى ذلك القدماء من العرب المصريين والرحالة والعرب، حيث استخدموا دراسة الحالة في وصف حياة الناس والأمم. فاستخدمه القدماء المصريون في دراسة حالات المرض وحالات المجرمين... إلا أن استخدامه على أسس علمية لم يكن إلا حوالي النصف الأول من القرن التاسع عشر على يد فريدريك لي بلاي (F. LE PLAY) في دراسته لاقتصاديات الأسر العاملة في فرنسا، وكذلك دراسة توماس زنانيك (Thomas et Znanieek) الشهيرة حول الفلاح البولندي في أوروبا وأمريكا. هذا ويعتبر ويليام هيلي (W. Healy) من الرواد الأوائل الذين استخدموا هذا المنهج في دراسته عن الأحداث الجانحين، وانتهى من دراسته العميقة تلك إلى تعدد الأسباب للسلوك الجانح.

يعرف منهج دراسة الحالة بأنه: " المنهج الذي يقوم فيه الباحث بدراسة حالة ما فرداً أو أسرة أو جماعة أو مؤسسة أو مجتمعاً كاملاً، من جميع جوانبها في تاريخها وتطورها من أجل الكشف عن العوامل المسببة فيها، والعلاقات السببية بين أجزائها للوصول إلى تعميمات علمية متعلقة بها وبغيرها من الحالات المشابهة.

وقد تكون الحالة المدروسة فرداً أو أسرة أو جماعة أو مؤسسة اجتماعية أو مجتمعاً محلياً وذلك باستخدام أدوات للبحث تجمع بيانات تدل على الوضع القائم للحالة حاضرها وماضيها وعلاقتها مع غيرها من الحالات، وبعد النظر العميق في العوامل والأسباب؛ يستطيع الباحث أن يرسم صورة متماسكة للحالة، وأن يفترض الفروض عن أسبابها وأن يشخص علاقاتها، وإن كان القصد الأعم الأغلب العلاج فيستطيع أن يصف الدواء الناجح. هذا وأن معظم دراسات الحالة هي دراسات تشخيصية علاجية إرشادية توجيهية.

تتميز دراسة الحالة بالعمق... وقد تنصب على جانب من جوانب حالة معينة محدودة، وتتم دراسة الحالة في إطار اجتماعي الأسرة أو الجماعة أو المجتمع. ولما كان الإطار الاجتماعي ديناميكياً، فلا بد وأن تتضمن دراسة الحالة معلومات عن الناس المحيطين بالحالة وعلاقتها بهم والمواقف التي يتم فيها التفاعل وطبيعة العلاقات...

لا يعتبر منهج دراسة الحالة منهجاً علمياً بصفة كلية، لأن عنصر الذاتية والاختيار الشخصي موجود في اختيار الحالات وفي تجميع البيانات، إضافة إلى عدم صحة البيانات المجمعة أحياناً وصعوبة تعميمها وبالرغم من ذلك؛ فقد بينت دراسة الحالة في الوقت الحاضر فعاليتها وقيمتها في مجالات متعددة كالتعلم والاجتماع وما يبدو مؤكداً أننا نتمكن من رؤية العلاقة بين العوامل المعزولة بصورة أكثر وضوحاً من مجرد التحليل الكمي. ويضيف البعض بأن منهج دراسة الحالة هو المنهج الأكثر أمانة لأن هدفه المعلن هو البحث المتعمق عن العوامل المعقدة والعلاقات المختلفة التي تسهم في حالة ما؛ لأن العوامل المختلفة في أي موقف من مواقف الحياة؛ إنما تأخذ معناها وأهميتها من الموقف نفسه، وذلك كله من أجل إيجاد السبب أو الأسباب الأصلية التي أدت بالحالة إلى ما هو عليها. ولكن الأمر الذي يجب التأكيد عليه هو لابد من التحلي بالموضوعية في دراسة الحالة والابتعاد عن

الذاتية في اختيار الحالات وفي جمع البيانات وتحليلها وتفسيرها، كما أنه من الضروري التأكيد على الحالات الأخرى المشابهة التي يجرى عليها تعميم النتائج.

تشبه دراسة الحالة المسح ولكنها أضيقت وأعمق منه، وهي دراسة كيفية بينما المسح دراسة كمية وكثيرا ما تتكامل الطريقتان. ويعتمد الباحث على كليهما للوصول إلى الحقيقة، إذ أنه يمسح أفقا واسعا ويتعمق في حالات نموذجية فيكون قد جمع بين السعة والعمق.

- مميزات منهج دراسة الحالة:

- اعتماده الطريقة الإحصائية في اختيار الحالة أو الحالات المراد دراستها إذ لا تختار اعتباطيا أو عشوائيا؛ بل تبنى على أساس الفروض ونوع الموضوع.

- التكاملية بين البيانات المختلفة المجمعة حول الحالة موضوع الدراسة.

- اعتماده للمصادر المتنوعة من أجل الحصول على البيانات والمعلومات عن الحالة موضوع الدراسة.

- العلاقة التكاملية بينه وبين مناهج وأساليب وأدوات البحث الأخرى في البحوث الاجتماعية والنفسية والسياسية والاقتصادية.

- اعتماده للوصف الدقيق لجميع البيانات والمعلومات المتوفرة عن الحالة بغرض الإصلاح أو العلاج.

- إمكانية التعميم على الحالات المشابهة.

- خطوات دراسة الحالة:

- تحديد الظاهرة أو المشكلة أو نوع السلوك المطلوب دراسته.

- تحديد المفاهيم والفروض العلمية والتأكد من توافر المعلومات المتصلة.

- اختبار العينة المماثلة للحالة التي يقوم بدراستها.

- تحديد وسائل جمع البيانات كالملاحظة والمقابلة والوثائق الشخصية كتواريخ الحياة والسير والمفكرات.

- تدريب جامعي البيانات.

- جمع البيانات وتسجيلها ووضع التعميمات .

وهناك من يحدد الخطوات الرئيسية لهذا المنهج في:

- تحديد الحالة المراد دراستها ظاهرة أو مشكلة أو سلوك؛

- جمع البيانات الضرورية لهم الحالة؛

- تحديد المفاهيم والفروض العلمية التي تفسر المشكلة ونشأتها وتطورها والتأكد من توافر البيانات المطلوبة في ذلك؛

- تحليل وفحص وتفسير دائرة الحياة الكلية انطلاقاً من البيانات والمعلومات المجمعة بعمق لإبراز كل جانب من جوانب المشكلة .

- استخلاص النتائج ووضع التعميمات شريطة أن تكون الحالة أو الحالات المدروسة ممثلة للمجتمع الذي يراد التعميم عليه.

تشبه دراسة الحالة البحث الوثائقي مع فارق أن دراسة الحالة تتناول الأشخاص الأحياء والجماعات الاجتماعية... وتستخدم وسائل جمع البيانات كالاستبيان وبطاقة العلامات ومقاييس التدرج والملاحظة والمقابلة.

ولا يكفي الإحصاء في شرح وتفسير العوامل الدينامكية الإنسانية المؤثرة في الموقف الكلي، ولكن قد تستخدم الأساليب الإحصائية عندما تكون الحالات مصنفة وملخصة، لتكشف عن عدد مرات حدوث الظاهرة فضلاً عن التطورات والاتجاهات ونماذج السلوك إن جميع مصادر دراسة الحالة كالشهادة الشخصية وهي أهمها وأولها والترجمة أو سيرة الشخص الذاتية والوثائق المجمعة والتاريخ الطبي والمحادثات والمقابلات الكلاسيكية وغيرها، فجميع هذه الوثائق تحلل وتفحص بطريقة مماثلة لما يتم في تحليل وثائق المنهج التاريخي بهدف تحديد درجة أصالتها.

تشكل كتابة الملاحظات في دراسة الحالة جزءاً أساسياً ويفضل أن تكتب المقابلات بكلمات الشخص ذاته ومباشرة، والتحقق من المعلومات المحصل عليها. لا يؤدي استخدام الاستبيان أو التخطيط المعد مسبقاً في دراسة الحالة إلى أفضل النتائج.